

عمارة عصور ما قبل التاريخ

ثالثا- العصر الحجري الحديث Neolithic:

يقسم العصر الحجري الحديث فعليا إلى قسمين:

1- العصر الحجري الحديث فترة ما قبل الفخار.

2- العصر الحجري فترة ظهور الفخار.

وهذه التصنيفات تنطبق على الحضارة ومواقعها في الشرق عامة. لأن مواقع هذا العصر في بعض القارات الأخرى (أوربا وأمريكا)، لا تتطابق مع الأزمان في الشرق، مثلا فترة العصر الحجري الحديث في جنوبي ووسط أوربا، يقابلها زمنيا عصر المعدن أو حتى البرونز في الشرق.

ومع ذلك يمكن اعتبار العصر الحجري الحديث هو عصر العمارة، أو على الأقل عصر بدايات العمارة المدنية والدينية والجنائزية. ففي هذا العصر تظهر المواقع في الشرق بالعشرات: منها القرى الصغيرة ومنها القرى الكبيرة، أو التي لها شكل المدن، وأغلبها ينتشر في الأناضول وبلاد الشام والرافدين وفي وادي النيل وقبرص.

يعتبر موقع أريحا (فلسطين) وتل بقرص بالقرب من دير الزور الحالية وموقع الجرف الأحمر على نهر الفرات وحالولة وجعدة المغارة، وتل الرمادي وتل حلف ورأس شمرا وحماه وجبيل أشهرها في بلاد الشام، وموقع العبيد وأروك وحسونة وسمارة في بلاد الرافدين، ومرمدة ودير تاسا والفيوم في وادي النيل، وموقع حاجي لار وشاتل هيوك ومرسين في الأناضول.

إضافة إلى موقع كيروكيتيا Kirokitija في قبرص. تعد هذه المواقع المذكورة، من أشهر مواقع العصر الحجري الحديث ليس في الشرق فحسب بل في العالم. فقد عرف الإنسان التشكيل المعماري الداخلي للمنزل في هذا العصر، وصممت الغرف حسب الوظيفة التي تؤديها، وقد بنى الإنسان بيته من اللبن المجفف على الشمس، وذلك فوق أساس من الحجر فأصبح للمنزل باب رئيسي يؤدي إلى داخل المنزل، الذي يضم غرفة للإقامة مجهزة بمصاطب طينية للنوم، كما نجد في المطبخ مكان للموقد، وبنى غرفة للمؤونة وبعض الملحقات الأخرى. استخدم إنسان ذلك العصر ألواح من الخشب في التسقيف، أو أعمدة يعلوها حصير وطبقة الطين الممزوج بالتبن، ليعطي اللبن والطين القوة والتماسك، كما أحيطت بعض القرى أو المدن بالأسوار ذات السماكة العالية، علما بأن السور كان ملاصقا للبيوت بحيث يشكل جدران استنادية، وبذلك تكون أسطح المنازل بمثابة أبراج للمراقبة والدفاع. وتنوعت أشكال الأسقف حسب المنطقة والمناخ، وقد أعطت المكتشفات في موقع أريحا في بلاد الشام، وموقع كيروكيتيا في قبرص صورة واضحة عن المباني في تلك الفترة.

أريحا:

تعتبر البقايا المعمارية في أريحا شمال فلسطين، من أقدم المباني في العالم القديم. ففي هذا الموقع كشف عن /22/ طبقة حضارية، يعود أقدمها إلى الألف التاسع قبل الميلاد، كما تعود أقدم طبقة معمارية متطورة من هذه الطبقات إلى عام /7800/ قبل الميلاد، حسب القياس بواسطة كربون /14/. كشف فيها عن بقايا معبد صغير، جدرانه من الحجر غير المشذب، كانت أرض المعبد تضم حفر دائرية مطلية بطبقة طينية خشنة، يعتقد بأنها كانت مخصصة لحفظ الحبوب، أما في الطبقة الأحدث فقد كشف عن بقايا معبد متطور وبشكل أفضل- عن سابقه في الطبقة الأقدم.

كان المعبد مستطيل الشكل وفي أحد ضلعيه الصغيرين يوجد محراب صغير، كان مكان لنصب "تمثال الإله"، ويعود المعبد في هذه الطبقة لعام /6500/ قبل الميلاد، أما في الطبقة المعمارية التالية والأحدث، فقد كشف عن بقايا معبد يعود لعام /5500/ قبل الميلاد، وهو مستطيل الشكل أيضا ولكن متطور عن سابقه، إذ يحتوي المعبد في هذه الطبقات على عدة أقسام: تبدأ بالقسم الأول وهو عبارة عن المدخل الذي يتألف من رواق تتقدمه ستة أعمدة، بعد المدخل يأتي القسم الوسط: وهو عبارة عن صالة محددة بعضادتين من كل جانب، وبعد القسم الأوسط تأتي الصالة المقدسة التي توسطها زوج من الأعمدة الأسطوانية.

كشفت فوق الطبقة التي تعود للألف السادس قبل الميلاد عن مستويات أحدث ومتطورة بشكل أفضل، لأنها تشكل مرحلة جديدة في تطور العمارة في الشرق، تعود لنهاية العصر الحجري الحديث وبداية عصر المعدن، مرحلة ظهرت فيها المدن الصغرى والتجمعات البشرية المتطورة في تلك الفترة.

من خلال دراسة مواقع أريحا في فلسطين وموقع كيروكيتيا في جزيرة قبرص، من أهم مواقع العصر الحجري الحديث، يتبين لنا بأن التشكيل المعماري الداخلي للمنزل على أساس الوظيفة، كان معروفا ومتبعاً في العمارة الشرقية في العصر الحجري الحديث، مما يؤكد بأن إنسان تلك الفترة في هذه المنطقة من العالم، كان قد سجل سبق التطور في العمارة من أي مكان آخر بعدة آلاف من السنين، التي مرت حتى توصلت مجموعات بشرية من مناطق أخرى من أوروبا إلى هذه الاستعمالات في البناء.

أكدت المكتشفات الحديثة بأن المنشآت في هذا العصر لم تقتصر على المساكن أو المعابد، وإنما شملت نوعاً ضخماً من المنشآت، التي تبعث على الاستغراب والدهشة، لقدرة الإنسان في هذا العصر على بنائها لضخامتها وأسلوب إنشائها الغريب، بالرغم من بساطة وبدائية معاداته في تلك الفترة، وأهم هذه الإنشاءات هي: الدولمن- الغروملش- المنهير وهي لا تعتبر مباني بالمعنى الصحيح، وإنما نوعاً من المنشآت المعمارية اقتصر الإنشاء فيها على مادة معمارية واحدة.

المنهير أو المسلة "Menher":

لا يعتبر المنهير تكويناً معمارياً، لأنه عبارة عن نصب تذكاري، على شكل كتلة حجرية تنتصب رأسياً، على شكل مسلة غير منتظمة (بدون نحت) يزين أحد وجهيها نقش، ويكون عبارة عن صورة أو كتابة أو الاثنين معاً، ويتراوح ارتفاع المنهير من 10م حتى 30م، والعرض عدة أمتار. وأشهر نصب المنهير كشف عنها في غرب أوروبا وتعود إلى الفترة الواقعة بين عامي 2700-1200 قبل الميلاد، بينما تعتبر المسلات المصرية نوعاً من المنهير ولكنها منتظمة الشكل وجميلة النقوش، وعملية نقل المنهير ونصبه في المكان المناسب كانت عملية شاقة وتحتاج إلى مجموعات بشرية كبيرة للعمل.

الغرومليش "Gromlesh":

إن منشآت الغرومليش تبعث على الدهشة والاستغراب ولا يعرف الهدف الحقيقي من إنشائها حتى الآن، لكن يعتقد بأن الهدف الأقرب إلى الحقيقة هو: هدف ديني. ومنشآت الغرومليش هي عبارة عن حجرة مستديرة مكونة من أحجار تنتصب رأسياً بشكل يجاور فيها بعضها البعض، مع ترك فواصل لا تؤثر على توازنها وقدرتها على تحمل الضغط الناتج من سقفها، المكون من أحجار مرصوفة أفقياً بجانب بعضها البعض. ويمكن لمنشآت الغرومليش أن تكون على شكل صفوف مستديرة بدون سقف، أو صفوف مستقيمة من عدد من المنهير مع سقف. وقد كشف عن العديد من منشآت الغرومليش في شمال وغرب أوروبا، وكلها تعود للعصر الحجري هنالك من عام /2700-1200/ قبل الميلاد، كما كشف عن بعضها في وادي النيل وتعود إلى العصر البرونزي (الألف الثالث قبل الميلاد).

الدولمن "Dolmen":

هي عبارة عن مقابر مكونة من غرفة واحدة يتراوح سطحها بين /4-70/م، وارتفاعها ما بين /1-3/م. وتكون على شكل منضدة حجرية، ولها مدخل يغلق بواسطة حجر كبير فيه فتحة مستديرة، وفي بعض الحالات يتقدم الغرفة دهليز طويل مسقوف. ومقابر الدولمن تتجاوز مع بعضها غالباً، مع أنها مخصصة لرئيس القبيلة، وفي كثير من الحالات نرى أن مقابر الدولمن تكون مغطاة بتلة ترابية مع أنها منشأة من الحجر، وقد كشف عن أهم أنواع هذه المقابر في غرب أوروبا (فرنسا - إنكلترا) وهي تعود للألف الثالث والثاني قبل الميلاد.

وفي مسيرة الإنسان نحو التقدم والتطور، تجاوز العصر الحجري الحديث ليدخل في مرحلة جديدة، مرحلة ظهر فيها استعمال المعدن بشكل جدي، مع أن المعدن استعمل في أواخر العصر الحجري الحديث، وكان استعمال النحاس أول استعمال للمعدن، ثم تلاه الذهب والفضة، من ثم القصدير الذي تم مزجه مع النحاس، وبذلك تم إنتاج معدن البرونز، وبالوصول إلى إنتاج معدن البرونز، الذي كان في وادي النيل وبلاد الشام والرافدين، دخل العالم المتمدن آنذاك مرحلة جديدة عرفت بعصر البرونز.

عصر البرونز Bronze Age

يقسم علماء الحضارة عصر البرونز إلى ثلاث مراحل:

- 1- **المرحلة الأولى:** ظهرت دويلات المدن في غالبية مناطق الشرق (بلاد الرافدين وبلاد الشام) ووادي النيل. وظهرت معها تطورات متعددة في كل المجالات الاقتصادية التجارية والزراعية والعمرانية. ظهرت الكتابة في وادي النيل وبلاد الرافدين، وبذلك انتقل الإنسان من عصور ما قبل التاريخ إلى عصور التاريخ أي عصور المعرفة والتسجيل.
- 2- **المرحلة الثانية:** بدأ ظهور المباني الضخمة من قصور ملكية ومعابد دينية ضخمة. كما تطورت الكتابة من كتابة تصويرية "هيروغليفية" إلى كتابة مقطعية، وتطورت النظم والقوانين والعلاقات بين أفراد المجتمع، وظهرت الطبقات والملكيات الفردية، كما ظهرت الدول القوية في الشرق وفي وادي النيل.
- 3- **المرحلة الثالثة:** فكانت فترة ظهور الدول القوية على شكل امبراطوريات، كما تم التحول من الكتابة المقطعية إلى الكتابة الحرفية، وبذلك دخل الإنسان مرحلة النور والمعرفة من خلال استعماله لكتابة سهلة، مكنته من تطوير معارفه وتبادلها مع الآخرين. في أواخر هذه المرحلة يظهر استعمال الحديد كمعدن في الشرق، وبذلك تتطور تقنية المعدات وتتطور المباني بكل أنواعها المدنية والدينية والجنائزية. وبدراسة العمارة في وادي النيل وبلاد الشام والرافدين، مع دراسة العمارة في بعض الحضارات المعاصرة لها في مناطق أخرى من العالم، نكون قد درسنا التراث المعماري في حضارات العالم القديم في ما بين الألف الرابع والأول قبل الميلاد.

د. عبير شذود